International Journal of Advanced Research in Islamic Studies and Education (ARISE)
e-ISSN 2785-9088

أغراض التعريف والتنكير البلاغية في الحديث النبوي

(كتاب السلام من صحيح مسلم أنموذجًا)

[THE RHETORICAL PURPOSES OF DEFINITE AND INDIFINITE ARTICLES IN HADITH OF THE PROPHET MUHAMMAD (CHAPTER OF ASSALAM IN SAHIH MUSLIM AS EXAMPLE)]

WADI' ABDULLAH ALI AL-JABIRI[1*]

[1*] Fakulti Bahasa dan Komunikasi, Universiti Sultan Zainal Abidin, 21300, Kuala Nerus, Terengganu, Malaysia.
Corespondent Email: Wadeealjaberi1@gmail.com

Received: 11 December 2022 *Accepted: 28 December 2022* *Published: 12 March 2023*

Abstract: Rhetoric is the highest rank of language strength, namely eloquence and good coherence and phrasing. For speech to be rhetoric, it must include eloquent rhetorical methods. To be considerate of rhetorical purposes, the speaker is better to choose the optimal style and the most accurate word to perform the meaning to the fullest. It better to choose the word, and put it in its proper place, it is not enough for the word to be eloquent to make the speech eloquent. This is the eloquent man who chose words and used exquisite and aesthetic sentences, and wherever he was, he was the most eloquent who has been given words which are concise but comprehensive in meaning. The Arabic language has been obediently lovely stood in his hands and has been honored by him rather than other languages. He is the imam of creation - peace be upon him - who made a clay from the art of the language and he formed it in his hands as he wished. This study came to shed light on an aspect of the eloquence and miracle of the Prophet's speech, to stand on its arts, taste its fine style, probe the details of rhetoric, shedding light on an aspect of his eloquence - peace be upon him - and his eloquence, and addressing one of the branches of rhetoric as a sample That indicates all the Intractable to be mentioned. This aspect is the using of definite and indefinite articles of Arabic language and their purposes in the Prophet's hadith. The researcher will make a statement of the concepts of using definite and indefinite articles of Arabic language in his hadiths, their rhetorical purposes, and the statement of the use of these purposes in the Prophet's hadith. The researcher will illustrate the importance of addressing this by studying, in an effort to answer questions such as: What rhetorical purposes are used in the Prophet's Sunnah? How do we understand the prophetic discourse through knowledge of the method of discourse and its rhetorical analysis? The researcher has concluded that the definite and indefinite articles of Arabic language have been frequently contained in the Prophet's hadith, and each was used in different contexts and purposes, such as maximizing, disparaging and limiting them to specific and detailed identification, and in other cases to identify, to reduce, multiply, mention type, etc., each case has been employed to perform specific and clear legitimate purposes indicated by these methods.

Key words: Definite, Indifinite, Rhetorical, Hadith of The Prophet Muhammad, Purposes.

ملخص : البلاغة هي أعلى مراتب اللغة قوة، وهي الفصاحة وحسن السبك، وحتى يكون الكلام بليغًا، لابد أن يشتمل على أساليب بلاغية فصيحة، وأن يكون مراعيًا للأغراض البلاغية، فيحسن المتكلم اختيار الأسلوب الأمثل، واللفظ الأدق لتأدية المعنى على أكمل وجه، فيحسن اختيار اللفظ، ويحسن وضعه في مكانه الصحيح، فلا يكفي أن يكون اللفظ فصيحًا ليكون الكلام بليغًا.

ذاك هو البليغ الذي لا يمنعه من انتقاء الألفاظ وسبك القلائد البيانية والمعنوية والجمالية شيء، وحيث الأمر كذلك فلقد كان أبلغ البلغاء وأفصحهم من أوتي جوامع الكلم، وقيدت له اللغة من خراطيمها حتى وقفت ماثلة بين يديه، مطيعة محبة، حتى شرُفت به اللغة على غير عادة اللغات، إنه أمام الخلق-ﷺ -من جعل من فنون اللغة طينةً يشكلها بين يديه كيفما شاء، وماءً يرده متى أحتاج إليه. ولعموم البلوى اليوم بين الناس، حتى أصبحوا لا يتذوقون المعاني البلاغية، ولا يميزوا بين سمين الكلام وغثه، جاءت هذه الدراسة لتجلية جانب من جوانب بلاغة وإعجاز الكلام النبوي، والوقوف على فنونه، وتذوق أسلوبه الرفيع، وسبر دقائق البلاغة، ورقائق الألفاظ، ملقيًا الضوء على جانبٍ من جوانب فصاحته -ﷺ - وبلاغته، متناولًا أحد فروع البلاغة كعيّنةٍ تدل على الكل المستعصي على الحصر، هذا الجانب هو التنكير والتعريف وأغراضه في الحديث النبوي، وسيقوم البحث ببيان مفهومي التعريف والتنكير وأغراضهما البلاغية، وبيان استعمال تلك الأغراض في الحديث النبوي، وبيان أهمية تناول ذلك بالدراسة، سعيًا للإجابة على أسئلة من مثل: ما الأغراض البلاغية المستخدمة في الحديث النبوي؟ وكيف نفهم الخطاب النبوي من خلال معرفة أسلوب الخطاب وتحليله بلاغيًا؟، وقد توصل الباحث إلى أن أسلوبي التعريف والتنكير قد تواردا بكثرة في الحديث النبوي، واستخدم كل منهما في سياقات وأغراض مختلفة، كالتعظيم والتحقير والاكتفاء بهما عن التحديد والتفصيل، وكذلك سيقا للتعميم، وفي حالات أخرى للتحديد، وللتقليل والتكثير وذكر النوع، وما إلى ذلك من الأغراض، وقد وظفت كل حالة منها لتأدية مقاصد شرعية محددة وواضحة دلت عليها تلك الأساليب

الكلمات المفتاحية: التعريف، التنكير، البلاغة، الحديث النبوي، أغراض

Cite This Article:
Wadi' Abdullah Ali Al-Jabiri. 2023. A'rad al-Ta'rif wa al-Tankir al-Balaghiyyah fi al-Hadith al-Nabawi (Kitab al-Salam min Sahih Muslim Unmuzajan) [The Rhetorical Purposes of Definite and Indifinite Articles in Hadith of The Prophet Muhammad (Chapter of al-Salam in Sahih Muslim as Example). *International Journal of Advanced Research in Islamic Studies and Education (ARISE)*, 3(1), 56-68.

المقدمة

تعد الدراسات البلاغية التي تتناول السنة النبوية المطهرة من الدراسات المهمة والضرورية لتسليط الضوء على البلاغة النبوية، ولبيان الأساليب البلاغية التي جاءت مكتظة بها الأحاديث النبوية، ودور تلك الأساليب في تأدية المعنى الشرعي المقصود منها، وعند التتبع للأحاديث النبوية نجد أنها قد استوعبت جلّ فنون وفروعها، مختلفة من حديثٍ إلى آخر في الأسلوب والألفاظ والمعاني المختارة بعنايةٍ فائقة.

يتضح بجلاء للقارئ العادي، وللباحث المتمكن أن السنة النبوية جاءت في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، وحافظت على الدوام على القمة في سلم الفصاحة والبيان مصداقًا لقول النبي -ﷺ -: (فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم...) (Muslim, 1:371)، وحتى لا يظل الأمر دعوى بلا برهان، سنركز في هذا البحث على إحدى دقائق فروع علم المعاني والذي هو أحد علوم البلاغة الثلاثة والتي تتمثل في أسلوبي (التعريف والتنكير)

لنتعرف على الأغراض البلاغية للتعريف والتنكير، ونرى كيف سيقت ووظفت في الأحاديث النبوية، وذلك في أحد كتب صحيح مسلم وهو الكتاب التاسع والثلاثين (كتاب السلام).

الكلمة العربية وأحوالها، عنيت بالبحث والدراسة من قبل الباحثين، والمختصين، وتم دراسة أحوالها، وتصريفاتها، ومشتقاتها، وأحوالها حال الإفراد، وحال التركيب، كما تم دراسة التغير الذي يطرأ على أولها، وأوسطها، وأواخرها، فعلم النحو يهتم بمعرفة التغير الذي يطرأ على أواخر الكلمة العربية حال البناء، أو الإعراب، وعلم التصريف يدرس التغير الحاصل في بنية الكلمة، وتغير شكلها، ومعرفة أحرف الزيادة التي تدخل عليها، ومعرفة أصل الكلمة ومصدرها، وهكذا نجد كل علمٍ يدرس الكلمة من جانب، ولما كان دراسة معاني الالفاظ ومدلولاتها من اختصاص علوم البلاغة، فإن علم المعاني قد عني بدراسة التغير الذي يحصل في الكلمة من الجانب الدلالي، ذلك أن كل تغير في طريقة ورود اللفظ في اللغة العربية؛ فإنه يجيء لتأدية معنى جديد يضيف للكلمة بعدًا آخر يجعلها أكثر وضوحًا. بل إن علم المعاني يدرس الجوانب الدلالية لأصوات الحروف في الكلم، من حيث قوتها، وهمسها، وشدتها ورخاوتها، والأغراض البلاغية من ذلك، ويدرس أيضًا الجوانب الدلالية في تغير موقع الكلمة، أو الألفاظ في الجملة، أو في الكلام، وفي تعريفها وتنكيرها، فكل تغير يطرأ إنما لتأدية أغراض بلاغية محددة، ولنفهم أكثر؛ ستتناول هذه الدراسة الأغراض البلاغية في التعريف والتنكير للكلمة

التعريف والتنكير

يهتم النحويون والبلاغيون بحالة الكلمة من حيث تعريفها وتنكيرها، ويتناولونها من جوانب مختلفة، فالنحويون يدرسون حال الكلمة تعريفًا وتنكيرًا لما لذلك من تأثير على الأحكام النحوية الكثيرة التي تؤديها حتى أنهم صدروا بها كتبهم بعد أبواب البناء والإعراب كما أورد ذلك السيوطي (al-Suyuti, t.th)، في حين يتناول البلاغيون النكرة والمعرفة من جهة الأغراض التي تستعمل فيها.

1. التنكير:

قبل أن ندرس الأغراض البلاغية لحالة التنكير، نتعرف على معنى كلمة "تنكير" في معاجم اللغة، وفي الاصطلاح تنكير: مأخوذة من" نكر: والنكرة: نقيض المعرفة. وأنكرته إنكاراً، والاستنكارُ: استفهامك أمراً تُنكِرُهُ" (al-Khalil, 1985)

وفي الاصطلاح: هي ما دلت على شيء غير معين (al-Mu’ayyad, 1423).

ويأتي التنكير في اللغة لأغراض كثيرة منها التقليل والتكثير ومنها التحقير والتعظيم، وكذلك التجهيل، والإفراد، وذكر النوع، والتعميم، والإطلاق، وما إلى ذلك من الدواعي (Habannakah, 1996).

نعرف من الأغراض التي تساق لها النكرة، أن لها أهمية كبيرة في كلام العرب، وأنها تسهم بشكل كبير في توصيل المعاني الدقيقة، وإذا نظرنا في الحديث النبوي، نجد أنها قد جاءت لأغراض مختلفة وبصور متعددة.

فنراها جاءت لتحديد العدد والحصر في حديث : " خَمْسٌ تَجِبُ لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ: رَدُّ السَّلَامِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ " (Muslim, 4:1704)، فقد حددت وحصرت خمسة أمور تجب للمسلم على أخيه المسلم وهي كلها تؤدي لغرض أن يكون المسلمون أخوة وعلى وئام دائم، فتحفظ بينهم حق الأخوة الوارد في الآية الكريمة: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [al-Qur'an, al-Hujurat, 49:10].

وفي الحديث التالي جاءت النكرة لتحقير الفعل الصادر من اليهود والتنبيه على عدم مجاراتهم في الفحش في الكلام، فقد قال -ﷺ- عندما حياه اليهود بكلام فحش، وردت عليهم عائشة بمثله: يَا عَائِشَةُ «لَا تَكُونِي فَاحِشَةً» فَقَالَتْ: مَا سَمِعْتَ مَا قَالُوا؟ فَقَالَ: " أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِمِ الَّذِي قَالُوا، قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ". (Muslim, 4:1704) وفي هذا تهذيب لأخلاق المسلمين في كل أحوالهم حتى في حال تعرضهم للأذى من غيرهم فلابد من طيب الكلام وعدم الاستجابة لمحاولاتهم جر المسلم لقبيح الالفاظ ، فالمسلم لا يخرج من لسانه إلا الشهد من الحروف.

وفي الحديث التالي نجد أنه قد كثرت فيه النكرات وجاءت لأغراض متعددة في حديث واحد يقول رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: «أَلَا لَا يَبِيتَنَّ رَجُلٌ عِنْدَ امْرَأَةٍ ثَيِّبٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ نَاكِحًا أَوْ ذَا مَحْرَمٍ» (Muslim, 4:1710)، فألفاظ " رجلٌ، امرأةٍ، ثيّبٍ، ناكحًا، محرمٍ" كلها نكرات، فلفظي "رجلٌ، وامرأةٍ" جاءتا للإفراد، أي رجل واحد، وامرأة واحدة لوحدهما، وأيضًا للتعميم، المقصود أي رجل وأية امرأة لوحدهما، في حين جاءت ألفاظ " ثيّبٍ، ناكحًا، محرمٍ" للحصر، فكلمة ثيّبٍ حصرت المقصود بالثيّب من النساء عن غيرها لأن التساهل قد يقع في حقهن وهنّ من يدخل عليهن غالبًا، ولأن البكر أكثر حماية من المجتمع، وأكثر حرصًا على نفسها فليس هناك حاجة لشملها في الحديث (al-Nawawi, 1392)، ولفظي " ناكحًا، محرمٍ" حصرتا وحددتا من يستثنون من هذا التحذير والنهي وهما الزوج، والمحرم.

وحديث: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا» (Muslim, 4:1719)، جاءت النكرة للتعظيم من أمر إصابة العائن لغيره، والتحذير من ذلك، حتى أنه من عظمها قرنها بمسابقة القدر، وكلمة "شيءٌ" والتي هي أنكر وأعم النكرات (Ibn al-Sayyih, 2004) جاءت للتعميم، فلا شيء من الأشياء يمكن له أن يسابق القدر لو وقع السباق إلا العين.

2. التعريف:

التعريف في اللغة:" أن تصيب شيئاً فتعرفه إذا ناديت من يعرف هذا. والاعْترافُ: الإقرار بالذّنب" (al-Khalil, 1985).

وفي الاصطلاح:

التعريف من المعرفة والمعرفة: "نقيض الجهل، وهي...المعنى الذي يقتضي سكون نفس المعتقد إلى ما اعتقده" (al-Himyari, 1999).

والتعريف يأتي على خمسة أضرب: التعريف بالضمير سواء أكان ضمير متكلم أو مخاطب أو غائب، والتعريف بالعلمية، وبالاسم الموصول، وبالألف واللام، وبالإضافة، ولكل منها أغراضه الخاصة التي يساق لأجلها.

الضمير

نبدأ بالمضمر كونه أعرفها، يأتي التعريف بالضمير حسب المقام:

فإذا كان مقام المتكلم جاء بضمائر المتكلم ومن ذلك قوله –عليه الصلاة والسلام– لعائشة: «بَلَى، قَدْ سَمِعْتُ فَرَدَدْتُ عَلَيْهِمْ وَإِنَّا نُجَابُ عَلَيْهِمْ وَلَا يُجَابُونَ عَلَيْنَا» (Muslim, 4:1707) فإنه أتى بضمائر المتكلم لملائمة الخطاب، فهو في موضع رد على سؤال سيدتنا عائشة عن سماعه لما قالوا، فأكد لها سماعه بالضمير المتصل للمتكلم بقوله: سمعتُ، رددتُ، لتأكيد إحاطته بمقالتهم، ولما كان مقام الغائب هو المقام المناسب لذكر اليهود استخدم ضمائر الغائب مع اليهود رغم وجودهم، ولعلنا نستنبط من ذلك تحقيره لأمرهم، وعدم استحقاقهم لذكرهم، فذكرهم بضمير الغائب ثلاثًا "عليهم، عليهم، لا يجابون" وفي ذلك إشارة أن حضورهم كغيابهم، وأن دعائهم عليه كذلك ليس له قيمة ولا قبول، ولا يستحق الالتفات، ونجده أكد هذا المعنى بقوله: إنا نجابُ عليهم ولا يجابون علينا، مع إتيانه بالضمير المتصل للمتكلم مرتين "إنّا، نجابُ"، للتأكيد على وصول وقبول رد المسلمين عليهم كما يفيد ذلك التكرار، وأتى بضمير المتكلم الجمع هنا ليبين أن الامر يتعلق بكل المسلمين وليس بشخصه الكريم –ﷺ– فقط.

فإذا دققنا النظر في الحديث السابق سنلاحظ كيف تنقل النبي –ﷺ– في كلامه بين ضمائر المتكلم والغائب حسب مقتضى الخطاب، وهكذا نجد حديثه مليء بالضمائر وفي هذا الحديث فقط استخدم ثمانية ضمائر مختلفة.

وفي الحديث الآخر جاء بضمير المخاطب ثلاث مرات حيث كان المقام مقام المخاطب فقال:" «لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ، فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ» (Muslim, 4:1707) ، فاستخدم الضمائر المتصلة في" تبدءوا، لقيتم، اضطروه"، وكلها للمخاطب لأنها تتعلق بأمور وأفعال تصدر أو تحصل للمخاطب وهم عموم المسلمين هنا، فنهاهم عن بدء اليهود والنصارى بالسلام، وأمرهم في حال جمعهم طريق أن يضطروا اليهود والنصارى إلى أضيق الطريق، ويتصدروا هم فسيحه ومنتصفه ليظهروا اعتزازهم بالإسلام تحقيقًا لقوله تعالى: وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ [al-Qur'an, al-Munafiqun, 63:8]، لذا نرى وفرة استخدام الضمير في الأحاديث النبوية

والتي يكاد لا يخلو منها حديث، وهذا يدل على عناية النبي –ﷺ – بحال الخطاب والمخاطب وإيصال المعنى حسب مقام كل واحد.

العلمية

والعلمية تأتي لإفادة أغراض متعددة منها "إحضاره بعينه في ذهن السامع ابتداء باسم مختص به" (al-Rifa'i, 1980)، ومن شواهد هذا قوله –ﷺ – : «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ» فَقَالَا: سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا» (Muslim, 4:1712)، فذكر لهما "صفية" زوجه باسمها ليحضر اسمها في ذهنهما فيعرفان أنها زوجته، حتى لا يدخل الشيطان في قلوبهما شيئًا أو شرًا، فكان الغرض رد كيد الشيطان، وهذا أمرٌ مطلوبٌ من المسلم أن يبتعد عن مواطن الريبة، وأن يوضح ما يرفع عنه الشبهة حفاظًا على سمعته ومكانته وأخلاقه.

وفي الحديث الآخر حدد لنا –ﷺ – اسم الشيطان الذي يشغلنا في الصلاة ويلبّسها علينا لكي نحذر منه ونتعوذ منه بقوله: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ» (Muslim, 4:1728)، وقد ورد بضم الخاء وكسرها وفتحها كما في هذا الحديث، فأفادت العلمية هنا أن الشياطين أنواع، ولكل منهم عملٌ يقوم به لإفساد الناس، ومنهم هذا الذي يفسد علينا صلاتنا (خنزب)، فالعلمية هنا كما رأينا قد جاءت ليس لمجرد إيراد الاسم بل إضافة لذلك عرفنا أن الشياطين أجناس وأصناف وكل جنس وصنف لهم أعمال تختلف عن غيرهم، لذا فسعي الشيطان وزمرته لإضلال العباد ليس عشوائيًا، بل مخططًا وبدقة فمنهم الموسوس ومنهم الخناس ومنهم من يسعى بين الزوجين بالتفريق ومنهم...إلخ.

ونجده في حديث آخر قد صرح بالعلم باسم عمه العباس رضي الله عنه، وذلك ليستثنيه من الجميع الذين اشتركوا في لدّ النبي –ﷺ – قَالَتْ عائشة: لَدَدْنَا رَسُولَ اللهِ –ﷺ – فِي مَرَضِهِ، فَأَشَارَ أَنْ لَا تَلُدُّونِي، فَقُلْنَا: كَرَاهِيَةَ الْمَرِيضِ لِلدَّوَاءِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: «لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا لُدَّ، غَيْرُ الْعَبَّاسِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُمْ» (Muslim, 4:1733) ، فأورد اسم العباس ليستثنيه من العقوبة، وذلك أنّ العباس لم يشترك معهم في لدّه، واللدود هو دواء يصب في أحد جوانب فم المريض ويسفا به، أو يحنّك به، وكان الرسول –ﷺ – قد أشار عليهم بعدم لدّه فاستمروا بلدّه ظنًّا منهم أن طلبه ذلك هو من كراهية المريض للدواء فقط كما قالت عائشة– رضي الله عنها– في الحديث، فأفادت العلمية هنا التحديد والتعيين لواحد من الكل.

وإذا تتبعنا الأحاديث النبوية لوجدنا أنه جيء بالاسم العلم لأغراض متعددة كلها تفيد وتطابق مقتضى الحال.

الاسم الموصول

يجيء الاسم الموصول ليفيد أغراضًا عديدة منها عدم العلم بأحوال الشخص، ومنها الإبهام ومنها التعظيم ومنها الاستهجان، ومنها التحقير والتعريض والتفخيم وغير ذلك من الأغراض التي يساق لها كالتقرير وزيادته والاختصار، ولو نظرنا في الحديث النبوي فسنجد فيه الكثير من الأسماء الموصولة التي قد استعملت لأغراض مختلفة.

ففي الحديث التاسع والثمانين من هذا الكتاب قوله –ﷺ – : «مَا مِنْ دَاءٍ، إِلَّا فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ مِنْهُ شِفَاءٌ، إِلَّا السَّامَ» (Muslim, 4:1736)، فقد سيق الاسم الموصول هنا لغرض الاختصار فأُتِيّ ب "ما" عوضًا عن ذكر كل الأمراض والأسقام والأوبئة والتي لا يمكن حصرها واستيعابها في حديث واحد، وذلك لأن الأدواء غير محصورة، ومتجددة وكل زمان فيه من الأدواء التي لم تكن معروفة في الزمن الذي قبله، فأفاد الاختصار مع إرادة الكل، وجعل لكل تلك ' الأسقام والامراض علاجًا في الحبة السوداء، مما يبين فائدتها العظيمة لصحة الناس، واستثنى منها السّام الذي هو الموت، فالموت لا علاج له ولا يستثني صغيرًا او كبيرًا ولا عليلًا أو صحيحًا، وهو الداء الوحيد الذي لا ينفع معه الدواء، كما قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧ [al-Qur'an, 56: 86-87]، متحديًا ومعلنًا أنه لا مناص من الموت، وكما قال أيضًا: كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ [al-Qur'an, al-Qiyamah, 75:26-28]، فلم ينفع الأطباء ولا الرقاة وقتها.

وفي الحديث التالي جاء بالاسم الموصول للتعظيم، والتهويل، وذلك في قصة الرجل الذي وجد كلبًا يلهث فسقاه، وقال: (فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي) (Muslim, 4:1761) ، فاستخدم الذي هنا بغرض التعظيم، وذلك لتعظيم من شأن ما وجده من العطش من قبل، وأن هذا الكلب قد وصل به الحال لما كان عليه هو، فأخذ خفه وسقاه فغفر الله له بصنيعه ذلك، لرحمته ذلك الكلب العاطش، فالراحمون يرحمهم الرحمن.

وفي حديث رد السلام على معشر اليهود، استخدم –ﷺ – الاسم الموصول "الذي" وجاء به بغرض التحقير، وذلك عندما قال –ردًا على سؤال عائشة رضي الله عنها– «فَقَالَ: " أَوَلَيْسَ قَدْ رَدَدْتُ عَلَيْهِمِ الَّذِي قَالُوا» (Muslim, 4:1706) ، فترك ذكر ما قالوا محقرًا منه، ومستهجنًا التصريح بلفظه، لعلو أخلاقه ودنو أخلاقهم ولأنه إنما جاء بالرحمة للعالمين وبحب الخير لهم، ولم يأتِ بالموت كما يتمنونه اليهود للرسول – عليه الصلاة والسلام– وللمسلمين معهم، فأبى أن ينزل بأخلاقه إلى مستوى أخلاقهم، بل أراد أن يعلو بأخلاقهم ليقتدوا بهم وليعلنوا إسلامهم ويدخلوا في دين الله، الذي هو رحمة للعالمين، فنحن مأمورين بلين القول وانتقاء الالفاظ في الدعوة إلى الله بصريح القرآن قال تعالى: ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤ [al-Qur'an, Taha, 43-44]، فإذا كان هذا الحال مع فرعون، فمن دونه من بابٍ أولى.

اسم الإشارة

يجيء التعريف باسم الإشارة لمعانٍ عدة، ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: "أَنَّ نَفَرًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ دَخَلُوا عَلَى أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَهِيَ تَحْتَهُ يَوْمَئِذٍ، فَرَآهُمْ، فَكَرِهَ ذَلِكَ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: لَمْ أَرَ إِلَّا خَيْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ بَرَّأَهَا مِنْ ذَلِكَ» (Muslim, 4:1711) ، فأتى باسم الإشارة للبعيد " ذلك" بغرض إبعادها عن التهمة، وعن إمكانية حصول المحذور الشرعي منها، وتبرئتها من ذلك رضي الله عنها، فكان استخدام لفظ الإشارة " ذلك" مناسبًا للمعنى المراد إيصاله وهو استحالة وقوعه منها، والأمر الآخر فعدم ذكر المحذور والاكتفاء بالإشارة إليه باسم الإشارة البعيد فيه ترفع عنه وتحقير له، فهو أقل شأنًا من أن يذكره -ﷺ- بلفظه، وهو أحقر من أن يأتيه صاحبيٌ أو صحابيةٌ كأسماء بنت عميس -رضي الله عنها-.

ونجده استخدم اسم الإشارة "هذا" في نفس الحديث لتحديد اليوم، فقال- عليه الصلاة والسلام-: «لَا يَدْخُلَنَّ رَجُلٌ، بَعْدَ يَوْمِي هَذَا، عَلَى مُغِيبَةٍ، إِلَّا وَمَعَهُ رَجُلٌ أَوِ اثْنَانِ» (Muslim, 4:1711)، فحدد وعيّن اليوم باسم الإشارة، وأعطى أمرًا شرعيًا يبدأ تنفيذه فورًا بعد تلك الواقعة، وكل ذلك دلّ عليه اسم الإشارة "هذا".

وفي حديث أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كَانَ مَعَ إِحْدَى نِسَائِهِ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَدَعَاهُ، فَجَاءَ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ هَذِهِ زَوْجَتِي فُلَانَةُ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ كُنْتُ أَظُنُّ بِهِ، فَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ» (Muslim, 4:1712)، فلفظ الإشارة هنا "هذه" الدال على المؤنث القريب، قد جرى استعماله للإشارة لزوجه الكريم --ﷺ-- ليبين لذلك الصحابي أن تلك المرأة هي زوجته عليه الصلاة والسلام، حتى يقطع كل الطرق على إبليس لإدخال الريب والشك وسوء الظن إلى قلوب المسلمين، مع أن الصحابة حاشاهم من سوء الظن، ولكنه أسلوب نبوي باستغلال الأحداث لتبيين وتوضيح الأحكام الشرعية للأمة بالقدوة الحسنة، فأفادت أنه ينبغي على المسلم تجنب مواطن الريب مهما كانت اخلاقه رفيعة، ومهما كان إيمانه قوي، ومهما كانت مكانته فليس بعد النبوة رفعة ومكانة، وما لأحدٍ أن يسيء الظن بمقام النبوة، ومع ذلك ابتعد حبيبنا -ﷺ- عن ذلك الموطن بحكمة ونحن أحوج ما نكون لتلك المواقف والأخلاق، والحرص على تجنب مواطن الشُبهات.

ولو نظرنا في قوله -ﷺ- عن دخول المخنثين على النساء: «لَا يَدْخُلْ هَؤُلَاءِ عَلَيْكُمْ» (Muslim, 4:1715)، مستخدمًا اسم الإشارة الدال على الجمع "هؤلاء" ليعلن أن المقصود هنا هو جنس المخنثين ككل، ولو جاء بلفظ المفرد لقال بعضهم إنما قصد شخصًا بعينه، وهو المذكور في الواقعة، لكنه أراد إزالة الغموض فاستخدم لفظ الجمع ليشمل كل من صفاتهم كصفة ذاك الشخص، وهو داخل ضمنهم أيضًا بل في مقدمتهم، فشمل الحكم الشرعي الجميع.

الإضافة

تعتبر الإضافة من أنواع التعريف المهمة التي يتم فيها إضافة اسم إلى اسم آخر من أنواع المعرفة وهذا يفيد تعلق ذلك المضاف بالأمر الذي تم إضافته إليه، فالإضافة هي أخصر طريق من طرق التعريف (al-Suyuti, 1988)، فهي تأتي للتعظيم، وللاستغناء عن التفصيل، وللتحقير والاستهزاء للمضاف أو للمضاف إليه، ولو نظرنا في أحاديث كتاب السلام لوجدنا أن التعريف بالإضافة قد جاء ليتضمن جلّ تلك الأغراض البلاغية:

ففي قوله –ﷺ – : «مَا لَكُمْ وَلِمَجَالِسِ الصُّعُدَاتِ» (Muslim, 4:1703)، جاء بالإضافة للفت الانتباه إلى المسند إليه وهي الصعدات أي الطرقات فأضاف إليها المجالس تنبيهًا وتحذيرًا من تحويل الطرقات وجنباتها مجالسًا؛ لأن ذلك يؤدي إلحاق الأذية بمرتادي تلك الطرقات.

وجاء به للتعظيم كما في قوله –ﷺ – : «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ» (Muslim, 4:1704)، فبإضافة ذلك الحق إلى المسلم تعظيمًا له وتنبيهًا إلى وجوب أداء تلك الحقوق وأنه لا ينبغي التهاون بها فهي حقوق لازمة للمسلم لا تنفك عنه، أينما وجد وجدت ومتى حضر المسلم حضرت حقوقه ووجبت على أخيه المسلم.

وفي حديث آخر جاءت الإضافة لتغني عن التفصيل الطويل والشرح الكثير، فيقول عليه أفضل الصلاة: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا وَعَلَيْكُمْ» (Muslim, 4:1705)، فاكتفى بالمضاف والمضاف إليه ليعرفنا بالحكم في الرد على اليهود والنصارى، وقد جاءت في سياق الرد على اليهود فعمم الحديث ليشمل كل أهلِ كتابٍ يأتون نفس الفعل ليشملهم نفس الحكم، مستغنيًا عن سرد نحلهم ومللهم.

وفي قوله –ﷺ – :«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ» (Muslim, 4:1712)، جاء بالإضافة هنا لتفيد العموم ولتفيد الاستعارة التي تدل على كثرة وسائل وطرق إغواء الشيطان للإنسان حتى أنها تشمل كل لحظاته وحركاته تمامًا كما أن الدم يصل لكل وريد وكل شعرة في جسم الإنسان، فأضاف المجرى للدم للاستغناء عن التفصيل ولبيان مدى الخطورة وعمومها تحذيرًا من الوقوع شرائك الشيطان ومصائده وحتى لا يطمئن أحدٌ إليه.

وجاء بالإضافة للتحقير في الحديث التالي: «بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ..» (Muslim, 4:1718)، فهو قد حقر من شأن كل الأمراض فلم يذكره واكتفى بالتعبير عنها بلفظة كل وأضافها لنكرة وهي شيء زيادة في تحقير أمرها، وأنها باسم الله وبإذنه لن تضره.

وهكذا نلاحظ أن جميع أنواع التعريف وأغراضه قد تواردت وتوافرت بكثرة في الحديث النبوي، وفي أحاديث كتابنا هذا خصوصًا لتضيف قيمًا بلاغية جمة، وتؤدي أغراضًا مختلفة ذات معان ودلالات كثيرة، مبرزة الفصاحة النبوية في أجل صورها، فمن يستطيع تنويع الأساليب البلاغية بل من يتمكن من إيراد الأسلوب الواحد بأغراضه المختلفة وصوره الكثيرة فهو حقًا البليغ والفصيح.

المعرف ب "ال "

والمعرف بأل ثلاثة أنواع لتعريف العهد، ولتعريف الجنس، وللاستغراق:

1. لتعريف العهد: وهي ثلاثة أنواع (al-Fawzan, 1431):

- **عهد ذكوري:**

وهو أن يكون مدخول (ال) تقدم له ذكر في الكلام، كقوله تعالى: ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ [al-Qur'an, al-Nur, 25:35]، وفائدتها: التنبيه على أن مصحوبها هو الأول بعينه. ومنه حديث عائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ، مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا» (Muslim, 4:1721)، ف "ال " هنا جاءت لتعريف العهد الذكوري فبينت كلمة (الشافي) أنه هو نفسه الذي طلب منه الشفاء، وذكره قبل قليل بقوله (اشفِ)؛ وذلك لتأكيد أن الشفاء لا يكون إلا من الله، وليس من غيره، ومثله حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ، إِلَّا السَّامَ وَالسَّامُ الْمَوْتُ وَالْحَبَّةُ السَّوْدَاءُ الشُّونِيزُ» (Muslim, 4:1735)، فلفظتي (الحبة السوداء، السّام) الثانية هي تعريف ذكوري للفظيهما الأوليين، وقد عرفتهما "ال" التعريف، فالمقصود أن الحبة السوداء التي أخبرتكم عنها حالًا هي الشونيز، والسّام الذي ذكرته لكم هو الموت.

- **عهد ذهني:**

وهو أن يكون مدخول (ال) معلومًا لدى المخاطب، نحو: جاء القاضي، إذا كان بينك وبين مخاطبك عهد في قاضٍ خاص، ومن هذا النوع حديث ابْن مَسْعُودٍ، يَقُولُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذْنُكَ عَلَيَّ أَنْ يُرْفَعَ الْحِجَابُ، وَأَنْ تَسْتَمِعَ سِوَادِي، حَتَّى أَنْهَاكَ» (Muslim, 4:1708)، ففي هذا الحديث عهد ذهني بين الرسول –ﷺ – وبين ابن مسعود بحجاب خاص يعرفه ابن مسعود في بيت النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك جاءت "ال " هنا لتعريف العهد الذهني.

- **عهد حضوري:**

وهو أن يكون مصحوب (ال) حاضراً، كقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [al-Qur'an, al-Ma'idah, 5:3] أي: اليوم الحاضر، وهو يوم عرفة؛ لأن الآية نزلت فيه، ومنه حديث العلاج بالعود الهندي عن إمّ قيس- رضي الله عنها- قالت: ودَخَلْتُ عَلَيْهِ بِابْنٍ لِي، قَدْ أَعْلَقْتُ عَلَيْهِ مِنَ الْعُذْرَةِ، فَقَالَ -ﷺ -: " عَلَامَ تَدْغَرْنَ أَوْلَادَكُنَّ بِهَذَا الْعِلَاقِ؟ عَلَيْكُنَّ بِهَذَا الْعُودِ الْهِنْدِيِّ، فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْفِيَةٍ" (Muslim, 4:1734)، فجاءت ال التعريف هنا في لفظة (العِلاق) لتعريف العهد الحضوري؛ ذلك أن العلاق كان حاضرًا حين دخلت على رسول الله- -ﷺ - -بابنها، فعرفت "ال " العلاق المقصود وخصصته بذلك الموجود، ومنه قوله --ﷺ -- عن استراق الجن للسمع: "فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا، حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ" (Muslim, 4:1750)، فَـ"ال" التعريف في لفظ (السماء) هنا عرَّفت السماء تعريفًا حضوريًا أي: هذه السماء التي تحضركم وترونها، منها يسترق الجن السمع، ثم يقذفونه ويزورونه لأوليائهم.

2. لتعريف الجنس: ويقصد بها بيان حقيقة الجنس، كقولنا: الرجل أقوى من المرأة، أي: جنس الرجال أقوى من جنس المرأة، لكنها لا تفيد الاستغراق هنا، بمعنى ليس كل الرجال أقوى من النساء، فهناك نساء أقوى من كثير من الرجال.

ومن هذا النوع جاء قوله -ﷺ -: «يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ» (Muslim, 4:1703)، أي يسلم جنس الركاب على جنس المشاة الذين يجدونهم أمامهم في طريقهم، وجنس المشاة على القاعدين إذا قابلوهم في سيرهم، والقليل يسلمون على الكثير إذا التقوا؛ وذلك لما فيه من التواضع ومراعاة حقوق الأخوة، والدين، وليس المقصود الاستغراق بأن يسلم كل الركاب على كل المشاة، وكل المشاة على كل القاعدين، وكل جماعة قليلة على كل جماعة أكثر منها.

3. للاستغراق: ويقصد بها أن تأتي لاستغراق الجنس، وعلامتها أن يحل محلها (كل)، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ [al-Qur'an, al-Asr, 103:1-2]، أي: إنّ كل إنسان في خسارة إلا الذين ءامنوا.

ومن هذا النوع حديث الرسول -ﷺ - لعائشة: يَا عَائِشَةُ «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» (Muslim, 4:1706) ، أي أن الله يحب كل رفقٍ، ف "ال " هنا جاءت لاستغراق جنس الرفق، ومثله حديث: «لَا تَبْدَءُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ، فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ» (Muslim, 4:1707) ، فجاءت "ال " هنا لاستغراق جنس اليهود والنصارى، وعدم ابتدائهم بالسلام.

الخاتمة

يتضح لنا بعد كل ما سبق أن أسلوبي التنكير والتعريف قد تواردا في الجزء المعني بالدراسة بكثرة، ولأغراض مختلفة سيقت لها كل حالة، وهذا يوصلنا للنتائج التالية:

نتائج البحث

أن أسلوبي التعريف والتنكير قد تواردا بكثرة في الحديث النبوي وخصوصًا في أحاديث كتاب السلام من صحيح مسلم، وهذا يقودنا إلى أن الحديث النبوي مليءٌ بالأساليب البلاغية، وقد جاء على درجة عالية من الفصاحة والبلاغة، وهو ما يثبت فصاحة النبي –ﷺ – –وبلاغته، وأنه قد أوتي جوامع الكلم، وطوع الحرف، وانساقت لها الكلمة، وأخذ بزمام اللغة العربية فجعل يتنقل بين أساليبها بسهولة ويسر.

استخدم كل منهما في سياقات وأغراض مختلفة، كالتعظيم والتحقير والاكتفاء بهما عن التحديد والتفصيل، وكذلك سيقا للتعميم، وفي حالات أخرى للتحديد، وللتقليل والتكثير وذكر النوع، وما إلى ذلك من الأغراض التي تجيء لها الأساليب البلاغية بقصد إيصال المعنى إلى المخاطبين بسهولة ويسر.

أن استخدام أسلوبي التنكير والتعريف لم يكن ترفًا زائدًا، أو ضربًا من الحظ، بل وظفت كل حالة منها لتأدية مقاصد شرعية محددة وواضحة ودقيقة دلت عليها تلك الأساليب، والأغراض، بحيث كانت أفضل أسلوب لإيصال المعلومة أو الحكم الشرعي في ذلك الموقف الذي أوردت فيه، وهذا ما يزيد من تأكيد أن البلاغة النبوية قد جاءت على أعلى مستوى، وأن النبي –ﷺ –– كان يختار الأسلوب بعناية فائقة؛ لأنه أراد أن يصل كلامه وحديثه لجميع الناس، كبيرهم وصغيرهم ومتعلمهم وأميّهم، وأديبهم وجاهلهم، والجميع يفهم المقصد النبوي، وهذا هو عين البلاغة والفصاحة، والتي تهتم بمطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.

وغير ذلك من النتائج الفرعية التي يمكن استنباطها من كل حالة استخدم فيها أحد الأسلوبين في كل حديث على حدة.

References

Al-Qur’an al-Karim.
Al-Fawzan. 1431. Ta’jil an-Nada Sharh Qatr al-Nada. Dammam: Dar Ibn al-Jawzi.
Habannakah. 1996. *Al-Balaghah al-‘Arabiyyah*. Beirut: Dar al-Qalam.
Al-Himyari. 1999. *Shams al-‘Ulum wa Daw’ al-Kalam al-‘Arab min al-Kalam*. Beirut: Dar al-Fikr.
Ibn al-Sayyih. 2004. *Al-Lumhah fi Sharh al-Mulhah*. Al-Madinah al-Munawwarah. A’madat al-Bath al-‘Alami fi al-Jami’ah al-Islamiyyah.
Al-Khalil. 1985. *Al-‘Ayn*. Baghdad: Dar wa Maktabah al-Hilal.

Al-Mu'ayyad. 1423. Al-Tiraz li Asrar al-Balaghah. Bayrut: al-Maktabag al-'Asriyyah.
Muslim. t.th. *Sahih Muslim*. Beirut: Dar Ihya' al-Turath al-'Arabiyy.
Al-Nawawi. 1392. *Al-Minhaj Sharh Sahih Muslim*. t.tp.: t.pt.
Al-Rifa'i. 1980. *Asalib Balaghiyyah*. Kuwayt: Wakalah al-Matba'ah.
Al-Sayuti. 1988. *Mu'tarak al-Aqran fi 'Ijaz al-Qur'an*. Bayrut: Dar al-Kutub.
Al-Sayuti. t.th. *Ham' al-Hawami' fi Sharh Jam' al-Jawami'*. Mesir: al-Maktabah al-Tawfiqiyyah.

.